الإيمان والمؤمنون
في
سورة
(المؤمنون)

د. نوح الفقير

الطبعة الثالثة
١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية(٢٠٠١/١/٥٧)
٢٢١,٧
فقي الفقير نوح
الإيمان والمؤمنون في سورة المؤمنون/ نوح
الفقير . عمان: المؤلف، ٢٠٠١
(١٦) ص
ر. أ (٢٠٠١/١/٥٧)
المواصفات// القرآن الكريم// الإيمان/
تمّ إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة
المكتبة الوطنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، أحكم الحاكمين، المتعالي بصفات الجلال والجمال على سائر العالمين، العليم العلام، الذي يخشاه حق خشيته العلماء الراسخون، ويقف عند حقيقة كبريائه العارفون وهم متحيرون مبهورون، هو { الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ }[1]، المنزّه حماه عن تطرق ريب المنون، {سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[2].

والصلاة والسلام على المختار، الأمين المأمون، المُبشر في سورة(ن) بأجر غير ممنون، المرفوع ذكره، الفوّاح عطره، الباهر نوره، المنشرح صدره، الطيب اسمه، الجميل رسمه، العالي قدره وهديه، فالأئمة به يهتدون ويقتدون، والملائكة المقربون به يُرحّبون، وحول ركابه يعرجون، والمسلمون المؤمنون بالانتساب إليه يُحبرون، وبذكره يطرب المؤذنون والسامعون والمرددون.

---

١. (٢٥٥) سورة البقرة.

٢. (٨٢) سورة الزخرف.

وعلى آله وصحبه وعترته، ومَن عاشوا في رحابه وهم آمنون، ومَن تبعهم وسار على نهجهم إلى يوم الدين، أولئك السابقون المقربون، وهم بالعروة الوثقى مستمسكون، المحفوظون بما حُفظ به يونس عليه السلام في بطن النون، وبعد؛

فلما آثرت كتابة موجزٍ في التفسير دعوت جابر الكسير، ومُجير المستجير، واستنهضت بعض الهمم، وحبّرت القلم، وحاربت السأم، وجمعت من شتات الموضوع ما لا يزيد عن الفتيل أو النقير أو القطمير، وقد عجزت عن الفيض الكثير، ثم أطلت التفكير، واخترت التعابير، واستخلصت من جواهر القرآن المكنونة ما يعادل القناطير، ثم رتبته طاقتي وجهدي- على قلة بضاعتي- ونسقته ولخصته، حتى قارب وجبة روحية، فاق مذاقها فطير الأمير.

ودعوت العلي القدير أن لا يحرمني والمسلمين تأويل الذكر والتفسير، وأن يَقيَنا عذاب ذلك اليوم العبوس القمطرير، والشر المستطير.

وكان رائدي إبان البحث والتعطير أنني بين الأجرين أدور؛ أصبت أو أخطأت، ومما زادني سروراً وشوقاً أن مناط بحثي ودرسي كان في سورة (المؤمنون)، تلك

السورة التي أبهرني نورها وجمالها- كدأب سائر سور القرآن- وشدّني بياضها، الذي فاق إشعاع البيض المكنون، واستمتعت برائع ثمارها الغض المصون.

فما هي السورة؟ وما هو موضوعها؟

١ . بين يدي السورة الشريفة: سورة {المؤمنون} المكيّة هي السورة الثالثة والعشرون ترتيباً في القرآن الكريم، ذات المائة وثماني عشرة آية، وكلماتها ألف ومائتان وأربعون، وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة[١]، نزلت هذه السورة الشريفة بعد سورة الطور، وقبل سورة الملك[٢].

والناظر في السياق التاريخي لنزول هذه السور الشريفة {الطور، المؤمنون، الملك) يجد الترابط البيّن الواضح بين موضوعاتهن؛ فسورة الطور تُعنى بأصول الإيمان، وتتحدث عن مآل السعداء والأشقياء[٣]، كقوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيم فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيم}[٤]، إلى قوله تعالى:

١. الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز ١/٣٢٩.

٢. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ١/٢٦.

٣. الصابوني، إيجاز البيان ص ٢١٥

٤. (١٧–١٨) سورة الطور

{وَيَطوفُ عَلَيْهِمْ غِلمَانٌ لَهُمْ كأنَّهُمْ لؤْلؤٌ مَّكْنُونٌ}[1]، وسورة الملك شأنها شأن السور المكيّة، تعالج موضوع الوحدانية، وهو أساس الإيمان ومطلبه، ولذلك استهلت الحديث عن عظمة الله تعالى وتقديسه؛ بقوله تعالى: {تبَارَكَ الذِي بيَدِهِ المُلكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قدِيرٌ}[2].

ولا يعزُبُنّ عن فكرك النيّر أن سورة {المؤمنون} واضحة الارتباط بما قبلها وما بعدها حسب ترتيب سور القرآن أيضاً؛ فهي بعد سورة الحج، وقبل سورة النور، وارتباطها بسورة النور بيّن غير خافٍ؛ قال الآلوسي[3]: (مناسبتها -سورة المؤمنون- لآخر السورة قبلها ظاهرة؛ لأنه تعالى خاطب المؤمنين بقوله: {يَا أيُّهَا الذِينَ آمَنُوا ارْكعُوا }[4]، وفيها { لعَلكُمْ تفْلِحُونَ} فناسب أن يحقق ذلك فقال عزّ قائلاً: { قدْ أفلحَ المُؤْمِنُونَ}[5].

---

١. (٢٤) سورة الطور

٢. (١) سورة الملك

٣. الآلوسي، روح المعاني١٨/٢

٤. (٧٧) سورة الحــج

٥. (١) سورة المؤمنون

وفي وجه اتصال سورة النور بسورة المؤمنون قال الآلوسي[1]:(وجه اتصالها بسورة المؤمنون: أنه سبحانه لمّا قال فيها: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ}[2] ذكر في هذه – سورة النور- أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزاني، وما اتصل بذلك؛ من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغض البصر- الذي هو داعية الزنا- والاستئذان الذي إنما جُعل من أجل النظر) .

٢. فضل السورة: ورد في فضل سورة (المؤمنون) الشريفة روايات كثيرة؛ منها صحيحة، ومنها ضعيفة، ومن الروايات الصحيحة ما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ سُمِعَ عِنْدَ وَجْهِهِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ يَوْمًا، فَمَكَثْنَا سَاعَةً، فَسُرِّيَ عَنْهُ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَآثِرْنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَارْضِنَا وَارْضَ عَنَّا، ثُمَّ قَالَ ﷺ: أُنْزِلَ

---

١. روح المعاني ١٨/٧٤

٢. (٥) سورة (المؤمنون)

عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أقامَهُنَّ دَخلَ الجَنَّـةَ، ثـمَّ قرَأ {قدْ أفلَحَ المُؤْمِنُونَ} حَتَّى ختمَ عَشْرَ آيَاتٍ)[1] .

وقد ورد في فضلها من الروايات الواهية الكثير، ولا حاجة إلى سردها؛ ومنها حديث: (إن أول هذه السورة وآخرها من كنوز العرش، مَن عمل بثماني آيات من أولها، واتعظ بأربع آيات من آخرها فقد نجا وأفلح)، فقد قال فيه العراقي وابن حجر: لا يوجد في كتب الحديث[2].

٣. موضوع السورة الشريفة ومقصودها: الوحدة الموضوعية لكل سورة قرآنية ثابتة، ويظهر أن موضوع السورة التي نحن بصدد الحديث عنها هو الإيمان والمؤمنون، يدل على ذلك أمران جليّان؛ هما:

أولهما: اسم السورة؛ فإن اسم هذه السورة يحدد موضوعها، يظهر ذلك بأدنى تأمل؛ إذ الحديث عن المؤمنين الذي بدأت به السورة لا ينفك عن الإيمان ومظاهره وحقيقته ودلائله في الأنفس والآفاق، وما كان سبباً في زيادته أو نقصانه، أو نقيضه.

---

١. رواه الترمذي ، تفسير القرآن، رقم ٣٠٩٧، والحاكم في المستدرك ٢/٣٩٢، والسيوطي في الدر المنثور ٢/٥.

٢. أنظر حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٦/٢٥١.

ثانيهما: آيات السورة؛ إذ بدأت السورة بذكر صفة المؤمنين، ثم يستطرد السياق لبيان دلائل الإيمان وحقيقته كما عرضها الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، من لدن نوح عليه الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ خاتم الرسل والنبيين، وتعرض لبعض شبهات المكذبين واعتراضاتهم عليها، ووقوفهم في وجه دعواتهم، حتى يستنصر الرسل بربهم، فيهلك الله المكذبين، وينجّي المؤمنين، ثم يستطرد إلى اختلاف الناس بعد الرسل في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد، وتنتهي السورة بمشهد من مشاهد القيامة، يلاقي الكفار فيها عاقبة التكذيب، ويؤنبون على ذلك الموقف المريب، وتُختم السورة بتعقيبٍ، يقرر التوحيد المطلق، والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران؛ فهي إذن سورة تتحدث عن المؤمنين وعن الإيمان بكل قضاياه ودلائله وصفاته، وهو موضوع السورة ومحورها الأصيل[١].

ولما كان موضوع السورة هو الإيمان فإن مقصودها بيان حال المؤمنين في العبادات، وتذوّق حلاوة الطاعات، وبيان حجج التوحيد، وبراهين النبوات، وذل الكافرين

١. سيد قطب، في ظلال القرآن ٤/٢٤٥٢

المتنكبين طريق الإيمان في الدنيا وبعد الممات، وعجزهم إبان العذاب في جهنم عن دفع العقوبات، ومكافأة المؤمنين في العقبى على حسب المعاملات، وتهديد أهل اللهو واللغط والغفلات، وفي السورة أمرٌ للرسول ﷺ بالدعوة إلى المنجيات وحث المؤمنين عليها، وصرفهم عن المهلكات، وسؤال المغفرة لهم والرحمات.

٤. متطلبات الإيمان (الفضائل والصفات): عرض القرآن الكريم في ثنايا هذه السورة الشريفة من الصفات ما يرسم شخصية المسلم في أفقها الأعلى؛ من عبادات ومعاملات وكريم الخصال والعادات؛ فبعدما وصفهم بالفلاح- وجعله بالفعل الماضي {أَفْلَحَ} الذي يدل على أصالة الفلاح واستقراره؛ لأنهم مؤمنون، وأنهم بمرامهم فائزون- بيّن القرآن الكريم أنهم في صلاتهم خاشعون، نحو مَسجَدهم ينظرون، وبجوارحهم مخبتون، وبآداب الصلاة ملتزمون، فلا يتثآبون وهم يصلون، ولا أصابعهم يفرقعون، ولا الحصى يُقلبون، ولا بلباسهم مشغولون، وكيف لا يخشعون وهم يخشون ذهابه؟ وقد روى حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أول ما يرفع من هذه الأمة الخشوع،

حتى لا ترون فيها خاشعاً)[1]، وقد تُحمل الصلاة في النص على المعنى اللغوي، فيكون المعنى أنهم في دعائهم خاشعون، ومن هنا نجد الحسن البصري وقد نظر إلى رجل يعبث بالحصى وهو يقول: اللهم زوّجني الحور العين، فقال الحسن : بئس الخاطب أنت تخطب وأنت تعبث!![2]

والمؤمنون عن اللغو معرضون، وكراماً عنه يمرون، ولهيشات الأسواق -ما يدور فيها من لغط واختلاط واختلاف- ناكبون، وفي إخفاء الفتنة على وفق الشرع متآزرون، وبالبر والخير معروفون مشتهرون، والإثم لا يقترفون، وعند ذكر القبائح يصمتون ويعرضون، وإذا انفتحت أبواب الخير يتسابقون، وإذا ذكر الناس الدنيا هم لله ذاكرون، وبحمده يسبحون، ويقدّسون ويمجّدون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

وهم للزكاة فاعلون، قصد الطهارة والنماء، والأفضل والأحب من أموالهم ينفقون؛ وهم من كرائمها يُؤدون، وبصالح الأعمال ملتزمون، فالزكاة في الآيات المدنية

١.كتر العمال برقم ٥٨٩٠.

٢. الخطيب الشربيني، السراج المنير ٢/٥٧٠.

يُراد بها ذات الأنصبة، وفي الآيات المكيّة تحمل على ما كان سبباً فيها كالعمل الصالح[1]، فهم في الحالتين هم الطاهرون، وهم لفروجهم حافظون ممسكون، لا يرسلونها {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}[2]، وهم عن الشهوات يعزفون، وعلى العفة يعزمون، وعلى نيتها يتكاثرون، وبالإفك لا يجهرون، ولا يتخافتون، ولعوراتهم ساترون، كدأبهم في عورات أهليهم سابغون، وهم لأماناتهم وعهودهم كلها مراعون، وعلى حفظها وإصلاحها قائمون، لا يكذبون، ولا يُخلفون، ولا يخونون، بل موفون آمنون.

إن أوصاف المؤمنين تتردد في هذه السورة للتأكيد بين الفينة والفينة أنهم هم الوارثون، فهم من خشية ربهم مُشفقون، وبآياته يصدّقون ويوقنون، وبه لا يشركون، وينفقون وقلوبهم وجلة، ولا يمنّون؛ خشية أن لا تقع على الوجه اللائق؛ لأنهم إليه راجعون، ويوم القيامة إليه يُبعثون، فأحرى أن يكونوا بالخيرات يُسارعون، وهم لها سابقون، إنها نهاية مقامات الصدّيقين.

---

١. الراغب الأصفهاني، المفردات ٢١٤.

٢. (٦) سورة المؤمنون.

ولما كانت هذه الأوصاف والطاعات مظنة أن يُقال: إنها ثقيلة، قال سبحانه وتعالى: {وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ}[1]، ولثبات هذه الخصائص في النفوس عبّر القرآن الكريم عنها جميعاً بالجملة الاسمية دون الفعلية؛ لأن الجملة الاسمية في اللغة تدل على الثبات، والفعلية تدل على التجدد والحدوث، فهي مظنة الانقطاع، والاسمية مظنة الاتصال والدوم[2].

٥. دلائل الإيمان وبراهينه في الأنفس والآفاق: لما كان الحديث في السورة الشريفة عن الإيمان استلزم بيان أدلة أركانه، وبراهينه في الأنفس والآفاق.

أما الإنسان ذو النطفة الطينية والعلقة والمضغة بأطواره الجنينية كافة، العاجز عن معرفة ما حوله، فضلاً عن أن يدرك كنه نفسه وحقيقته، فقد تقدم في أسلوب حياته؛ فبنى بيته، وحاك ثوبه، وزرع أرضه، وجمع طعامه، ونظم أسرته، وانضم إلى جماعته وعشيرته؛ فأسس دولته، وأشاد ملكه، وأنار الظلام، وصنع العجائب،

---

١. (٦٢) سورة المؤمنون.

٢. الزمخشري، الكشاف١/٤٨.

وشارك الطير في السماء، ورافق الحيتان في أعماق البحار، واستنبط الاختراعات، حتى اعتلى متن الهلاك، وحطّ رحاله على الأفلاك.

لقد بدأ الله مشوار خلق الإنسان من تراب ثم نطفة، وقال الله تعالى: {ثُمَّ خلقنا النُّطفة عَلقة فخلقنا العَلقة مُضْغة فخلقنا المُضْغة عِظامًا فكسَوْنا العِظامَ لحْمًا ثُمَّ أنشَأناهُ خلقًا آخرَ فتبَارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالِقِينَ}[1]، فسبحان مَن خلق الإنسان، وأتقن خلقه غاية الإتقان، سبحان مَن منحه العقل الكبير، وعقد تركيبه، وجعله مناط التدبر والتفكير، وأعطاه الحواس، ونظمها هذا التنظيم القويم، وركبها أحسن التركيب، حتى استجمع أكثر الغرائب، وكاد يستغرق العجائب:

وتزعم أنك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر

فتبارك الله العلي الكبير، سبحانه وهو على كل شيء قدير.

ومن الوجوه الوجيهة ما ذكره الآلوسي في تفسير الآية آنفة الذكر؛ إذ قال: (تضمنت الآية تسعة أطوار،

١. (١٤) سورة المؤمنون.

ووقع الموت فيها الطور الثامن، ووافق ذلك أن من يُولد لثمانية أشهر من حمله قلما يعيش) انتهى[١]، والواقع يؤيد هذا ويثبته.

هذا الإنسان، وأما الكون ذو السبع الطرائق، وما فيه من الخلائق والدقائق، والأنهار السوابق، والأرضين الطوابق، والقنوات والعيون والجنان والحدائق؛ فالناظر فيه يجد الجمال الفائق، والدليل اللائق؛ {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}[٢].

إن المتأمل في الكون يجد نباته نديّ مزهر، وزهره فوّاح عطر، وقد فرّخ زرعه، وأخرج شطأه، وآزر بعضه، وقام على سيقانه، منه السامق في الطول، ومنه الموقر في الحمل، ومنه المعروش وغير المعروش، المتشعب الأغصان، المتشابك الفروع، فيه الطلح المنضود، والظل الممدود، والقطوف الدانية، والثمار الناضجة، وقنو النخل المتعثكل، إنه أثر المطر، الذي أنزله الله سبحانه وتعالى

١. الآلوسي، روح المعاني ١٨/١٧

٢. (٨٨) سورة النمل.

بقدر، قال الله تعالى: {وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}[1].

مَن الذي أخرج هذه اللوحة الفنية إلى الوجود؟ هل كان هذا في مقدور المادة الميتة أو الطبيعة العاجزة؟! كلا؛ إن لها خالقاً سبح وجودها بحمده، ونطق لسان حالها بوجوده، فأنى تسحرون؟

ولا تنسوا أيها المؤمنون أنكم يوماً ما زائلون؛ كالنبات والأموال، فالأخضر مهما كان مدهاماً لا شك يصير حطاماً، والنهار مهما ازداد إشعاعاً لا شك يتحول ظلاماً، {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}[2]، فلا تقولوا مثلما قال الملأ من عادٍ قوم هود؛ إذ قالوا لضعفائهم: {أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}[3]، لا تقولوا ذلك، بل آمنوا بالبعث؛ فإنه ركن الإيمان، والإيمان به نهج المؤمنين، واسألوا المعاندين

---

١. (١٨) سورة المؤمنون.

٢. (١٦) سورة المؤمنون.

٣. (٣٥-٣٧) سورة المؤمنون.

السـؤال الآتـي: {أَوَلَـيْسَ الَّـذِي خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ}١.

٦ـ تصديق الرسل ركن الإيمان وتكذيبهم سبيل الهوان: انتقلت الآيـات الشريفات إلـى ذكر قصص بعض الرسل؛ للدلالة على أن تصديق الرسل أساس أركان الإيمان، وأنـه السبيل القويم للوصول إلـى جنـات النعيم، وأمـا تكذيبهم فسبيلٌ موصل إلى سواء الجحيم.

إن أول هذه القصص قصة نوح عليه السلام، عُرضت بعد قوله سبحانه تعالى: {وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ}٢، وفي ذكر تلك القصة بعده من حسن الموقع ما لا يوصف؛ إذ الترابط بين الفلك ورسول الله نـوح عليـه السلام يظهر بـأدنى تأمل، وملخص قصته عليـه السلام: أنـه طلب من قومه برفق أن لا يعبدوا إلا الله؛ قائلاً: { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ}٣، وكيف لا تلاحظون؟! فقـال المـلأ المشـهورون بكمـال عـراقتهم وشـدة شـكيمتهم للعوام المستغفلين: إنه بشر مثلكم يطلب السيادة والتفضل

---

١. (٨١) سورة يـــــس.

٢. (٢٢) سورة المؤمنون.

٣. (٢٣) سورة المؤمنون.

عليكم! قال الله تعالى: {فقَالَ المَلأُ الَذِينَ كفرُوا مِن قوْمِهِ مَا هَذا إلا بَشرٌ مِّثلكمْ يُرِيدُ أن يَتفضَّلَ عَليْكمْ وَلوْ شَاء اللهُ لأنزَلَ مَلائِكَة مَّا سَمِعْنا بهَذا فِي آبَائِنا الأوَّلِينَ}[1]، إنه بنظرهم لا يُطاق، ويُشد لدفعه النطاق، ولذلك قالوا: {إنْ هُوَ إلا رَجُلٌ بهِ جنَّة فترَبَّصُوا بهِ حَتَّى حِين}[2]، {قالَ رَبِّ انصُرْنِي بمَا كذبُون}[3]، ولا تذر على الأرض دياراً من الكافرين، لبيك يا نوح، ولا تخاطب الله في الذين ظلموا إنهم مُغرقون، لن تحميهم الحصون، ولن ينفعهم المجون، والمؤمنون اليوم من الكفار يضحكون، وهم آمنون مستبشرون.. وفار التنور، وفاز الفلك المشحون، يعلوه الصادقون، ونبيهم عليه السلام يلهج: { رَّبِّ أنزلنِي مُنزَلا مُّبَارَكا وَأنتَ خيْرُ المُنزلِينَ}[4].

ويُنشئ الله تعالى بعد نوح قروناً آخرين؛ منهم عاد قوم هود؛ يدل على ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف حكاية عن قوم هود عليه السلام: { وَاذكرُواْ إذ جَعَلكمْ

١. (٢٤) سورة المؤمنون.
٢. (٢٥) سورة المؤمنون.
٣. (٢٦) سورة المؤمنون.
٤. (٢٩) سورة المؤمنون.

خُلفَاء مِن بَعْدِ قوْمِ نُوحٍ}[١]، وتتلخص قصتهم بأن نبيهم دعاهم إلى ما دعا إليه نوح عليه السلام قبله؛ أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره؛ فقال الأشراف المُترفون منهم للضعفاء: أبشر يهدونكم؟! يأكلون مما تأكلون، ويشربون مما تشربون، ولئن أطعتموهم إنكم لخاسرون، وفي رأيكم مغبونون، وقالوا: {إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ افترَى عَلى اللهِ كذِبًا وَمَا نحْنُ لهُ بمُؤْمِنِينَ}[٢]، فقال هود عليه السلام: {رَبِّ انصُرْنِي بمَا كذّبُونِ}[٣]، لبيك يا هود، عما قليل ليصبحن نادمين،لأنهم كذبوا المرسلين؛ إذ أرسل الله إليهم رسلاً تترى فكذبوهم، وآذوهم، وعلى النطع ذبحوهم، فجعلهم الله تعالى أحاديث، فبعداً لقوم لا يؤمنون، وليت مَن بعدهم يدركون.

وثالثة الأثافي: أجوبة فرعون لأسئلة موسى وهارون؛ وقد جاء موسى بكتاب لعلهم يهتدون، فقال الملأ الذين كفروا مع فرعون: أنؤمن لبشرين مثلنا

١. (٦٩) سورة الأعراف.

٢. (٣٨) سورة المؤمنون.

٣. (٣٩) سورة المؤمنون.

وقومهما لنا عابدون ومنقادون، وخادمون؟ فكانوا من المُهلكين.

إن شريعة الرسل واحدة، وربهم واحد، وأمتهم واحدة، على الإيمان متفقون، ولربهم متقون، والكفار أحزاب، كل حزب بما لديهم فرحون، ويحسبون إذا استدرجهم الله تعالى بالأموال والبنين أنه يسارع لهم في الخيرات، بل لا يشعرون، فاستحقوا العذاب الهون، حتى إذا أخذ الله مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون، { لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ}[1]، تلك أهواؤهم {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ}[2].

إن هذه حال الرسل مع أنبيائهم، فلا تعجب يا رسول الله صلى الله عليك وسلم من حال قريش، لم يدّبروا القول، فهم له منكرون، وعشقوا الباطل، فأكثرهم للحق كارهون، ولم يؤمنوا بالآخرة فهم عن الصراط ناكبون.

---

١. (٦٥–٦٧) سورة المؤمنون.

٢. (٧١) سورة المؤمنون.

٧. دحض شُبه الكافرين التي أثيرت حول الإيمان بوحدانية الله وقدرته: أثار الكفار شُبهاً أوهى من بيت الهَبون- العنكبوت- ليشك المؤمنون، فأزال القرآن في سورة (المؤمنون) ما اقترفه المشككون؛ مبيناً لهم الدليل؛ فإن شككتم أيها الكافرون في البعث والنشور فلتعلموا أن ابتداء الخلق أسهل من إعادته، فالله تعالى الذي فطركم على غير مثال سابق ، وأنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة- قليلاً ما تشكرون- لا شك قادر على إعادة ما خلق، {وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[١]، والذي يقدر على تصريف الليل والنهار لا يعجزه تسوية البنان وإعادة البنيان.

فإن {قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ}؟ فأجبهم يا محمد ﷺ؛ {قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا

---

١. (٨٠) سورة المؤمنون.

يُجَارُ عَلَيْهِ[1] إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ}[2]، أي: كيف تُخدعون عن توحيد الله القادر!
وأعلم يا محمد أن قريشاً رددت ما قاله الأولون: إن هذا إلا أساطير الأولين!! فسبحان الله وتعالى عما يصفون.

وإن كان تلبيس الشيطان عليهم مناطه اتخاذ الولد فلو كان معه آلهة لذهب كل خالق بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، فتعالى الله عما يشركون.

الحق أبلج، والباطل لجلج، ولا يغرنك يا رسول الله ﷺ إنكارهم العذاب أو البعث؛ فإنهم يستدرجون، {وَإِنَّا عَلَى أن نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ}[3]، ولكن ادفع بالتي هي أحسن السيئة، وقل بدعائك: ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين، وشُبه المُضلين، وأعوذ بك ربّ أن يحضرون.

ومن العجيب الغريب أنهم لم يرضوا للنبوة ببشر، وقد رضي أكثرهم للإلهية بحجر، ونسوا مدبر الكون، وما فيه من جنّ وبشر وكواكب وشمس وقمر، وفجر وضحى

---

١. يجير ولا يجار عليه: يغيث ويحمي من يشاء، ولا يغاث أحد منه ولا يُمنع. أنظر التسهيل لإبن جزي ١/٤٦١.

٢. (٨٤-٨٩) سورة المؤمنون.

٣. (٩٥) سورة المؤمنون.

وسحر، وبحر ونهر، وجبال وأودية وسهل فيه مستقر، وحجر ووبر ومدر، وظل وقرّ وحرّ ومطر، وكل شيء خلقه الله تعالى بقدر.

٨. ثمرة الإيمان: (المؤمنون فائزون والكافرون خاسرون): ختام سورة (المؤمنون) يوافق حالهم، ويحكي مآلهم، ويبين ثمرة أعمالهم، وكريم خصالهم، التي استحقوا بها الفردوس الأعلى، وهم للفردوس وارثون.

ولما كان الكافرون خصماء المؤمنين في الدنيا جعل الله سبحانه وتعالى عقاب الكافرين جزءً من نعيم المؤمنين، ومن ثم قدّم الله سبحانه وتعالى بيان حال المُعذبين، وحكى قصتهم قبل بيان مآل المؤمنين، وذلك أزكى وألذ؛ إذ يحسُن تقديم التخلية على التحلية؛ فقال فيهم سبحانه: {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ}[١]، ثم في جهنم يُعذبون، تلفح وجوههم النار، وهم فيها كالحون، يكبكبون فيها ويسلسلون، ويصطرخون فيها ولا يُجابون،

---

١. (٩٩-١٠١) سورة المؤمنون

ذلك بما كانوا يفرحون في الأرض بغير الحق، وبما كانوا يمرحون، ويُسألهم الله تعالى: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}[1]؟ فبعداً لقوم لا يؤمنون.

شتان بينهم وبين مَن في الجنة يتنعمون؛{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[2]،{إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ}[3].

وتطول أيام الكافرين، ويقصُر يوم المؤمنين، حتى إذا قيل لهم: كم لبثتم عدد سنين؟ {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ}[4]، ومَن هم العادّون؟ هم الذين لما طالت عليهم الأيام عدّوها وأحصوها؛ وصدق القائل:

---

١. (١٠٥) سورة المؤمنون

٢. (٨) سورة فصلت

٣. (٥٥-٥٩) سورة يـــس

٤. (١١٣) سورة المؤمنون.

ألا إن أيام الشقاء طويلة كما إن أيام السرور قصار

إنه جزاء صبرهم على إيمانهم، وعزيمتهم في دعوتهم؛ قال تعالى: {إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}١.

وتختم السورة الشريفة بالدعاء والابتهالات، وقبلها بيان سبل الانتصارات من الدعوات، فقد أخرج أبو نعيم عن إبراهيم بن الحارث التميمي عن أبيه قال: (بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، وأمرنا أن نقول إذا أمسينا وأصبحنا: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ}٢، فقرأناها فغنمنا وسلمنا٣.

وأخرج الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن أبي حاتم وأبو نعيم وابن مردويه عن ابن مسعود ﷺ أنه قرأ في أذن مُصاب {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا} حتى ختم السورة فبرأ، فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال)٤.

---

١. (١١١) سورة المؤمنون .

٢. (١١٥) سورة المؤمنون.

٣. السيوطي، الدر المنثور، ٥/١٧.

٤. السيوطي الدر المنثور ٥/١٧، كنز العمال ٢٦٨٢.

إن الإيمان لا يستقر في النفس إلا إذا اقترن بالصبر والدعاء، وقد سبقت الإشارة في السورة إلى الصبر، وأما الدعاء فتقتضي الألوهية أن لا يسأل المؤمنون إلا الله؛ {فتعَالى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إلـهَ إلّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكريم وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إلهًا آخرَ لا بُرْهَانَ لهُ بهِ فإنّمَا حِسَابُهُ عِندَ ربِّهِ إنّهُ لا يُفلِحُ الكافِرُونَ}[1]، ومن ثم نجد الشرع الشريف يوجب طلب الهداية، والتثبيت على الإيمان في كل صلاة من الصلوات؛ إذ هي جزء الفاتحة، والفاتحة ركن الصلاة، وفيها يطلب التثبيت على الصراط المستقيم، ويتبرأ من أفعال المغضوب عليهم والضالين.

فقل يا مسلم: أعوذ بك ربِّ من همزات الشياطين، وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون، عندئذٍ انتظر من الله التثبيت، ولعدوك التشتيت، وارتقب إنهم مرتقبون.

إن مطلع السورة الشريفة وختامها مترابط أشدّ الترابط، قال القاضي البيضاوي: (بدأت السورة بتقرير فلاح المؤمنين، وختمها بنفي الفلاح عن الكافرين، ثم أمر

---

١. (١١٧) سورة المؤمنون.

رسوله بأن يستغفره ويسترحمه)[١]، ولا يخفى ارتباط هذه الأمــور بالإيمــان والمــؤمنين، فهــي وحــدة موضــوعية متكاملة.

وبعد؛

فلن أبرح القلم حتى أذكر إخواني أنهم مطالبون بالإيمان، وبالدعوة إلى الله تعالى، وهي خير الأماني، والتي إذا اقترنت بالعمل استحقت التهاني، وأوصلت صاحبها مراتب الإحسان، وذكر في الملأ الأعلى طول الزمان، ونال رضى الكريم المنان، وأذكركم بقول كعب بن مالك الأنصاري ﷺ:

أنسيتم عهد النبي إليكم   وقد ألظ وأكد الإيمان
أن لا تزالوا ما تغرد طائر   أخرى المنون موالياً إخوانا

وافتخروا دائماً بكل مؤمن مرددين ما رأيتم فيه:

جسماً تضمّن مؤمناً متخشعاً   عبد الإله ودان بالقرآن
فإذا الرجال تنازعوا في شبهة   فصل الخطاب بحكمة وبيان

---

١. البيضاوي، أنوار التنزيل ٤٩٢.

اللهم يا مغيث المستغيث، نسألك أجراً غير ممنون، ورزقاً من رحيق مختوم، وكأساً في الجنة من معين، بيضاء لذة للشاربين، لا فيها غول، ولا أصحابها عنها ينزفون، وفواكه ولحم طير، يشتاق إليها المؤمنون في الجنة ويشتهون، ويتخيرون ويتنعمون، ولمثل هذا فليعمل العاملون...آمين

والحمد لله رب العالمين